

النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله

1947 - 1960 م

أ. مصطفى عبيد.

أستاذ التاريخ المعاصر قسم التاريخ جامعة المسيلة

مقدمة:

يمكن أن نفتح مقدمتنا هذه بمقولة الشيخ عبد الرزاق قسوم الذي عرف الأستاذ الدكتور أبا القاسم سعد الله عن قرب، وعاشه مدة طويلة حيث قال: "سعد الله ليس كأحد من العلماء وليس كأحد من الناس لأنه كان العالم الزاهد الذي قدّم مصلحة وطنه ومصلحة شعبه قبل أي مصلحة شخصية"¹. من أجل ذلك حاولنا أن نساهم بهذه المداخلة من أجل التعريف أكثر بحياة سعد الله النضالية وثوريته من أجل وطنه وأبناء شعبه منذ كان طالبا في تونس وكذلك بمصر. أي تناولنا الفترة الممتدة من 1947 إلى غاية 1960، وقد منعنا من استكمال نشاطه الثوري الباقي ضيق المجال المخصص لمثل هذه المقالات. ولكن نطمح أن يكون لذلك مكان آخر سنضيف فيه ما لم يذكر الآن وما نرى من خلاله - أننا قدمنا ولو القليل في حق هذا الشخص المدرسة والمؤسسة الفعالة في حد ذاته

حاولنا قدر الإمكان حصر الإشكالية في نشاط سعد الله النضالي سواء في تونس أو بمصر دون إهمال ما يوضح المعنى ويضع القارئ في الصورة. أي مما تعلق بنشأة سعد الله وتكوينه. وذلك من خلال إشكالية واضحة هي: ما النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله خلال الفترة المدروسة 1947 - 1960؟ إشكالية تمثلت تساؤلات في: كيف نشأ سعد الله وما مؤثرات ذلك فيه؟ وماهي النشاطات الثورية التي قام بها الطالب سعد الله سواء كطالب منفرد، أو كمسؤول عن جمعيات الطلبة بتونس ومصر؟ وماذا قدم للثورة الجزائرية من تضحيات؟ وكيف جعل الطلبة الجزائريين والعرب، وكذا المسؤولين السياسيين الذين التقاهم، والمجلات والصحف الجزائرية والعربية، ومحطات الإذاعة والندوات، والمؤتمرات الطلابية... في خدمة الثورة والتعريف بالقضية الجزائرية وتدويلها؟

مولد أبي القاسم سعد الله ونشأته:

ولد بلقاسم بثلاثة نقاط على حرف القاف (بلقاسم) سعد الله، كما يقول عن نفسه، بقرية البدوع المجاورة لمدينة قمار بوادي سوف. وهو أول إخوته لأمه. وكان مولده في صيف حار وهي الخصائص الطبيعية للقرية والجنوب الجزائري عامة، حوالي سنة 1930 أو 1931. ولم يعرف أبو القاسم تاريخ مولده بالضبط على عادة الناس آنذاك، حيث لم يتم تسجيل الأبناء في سجلات الحالة المدنية. وهي (الحالة المدنية) الأسلوب الجديد الذي أدخلته الإدارة الفرنسية بالجزائر سنة 1882م، ووصل تدريجيا باتجاه الجنوب الجزائري، حتى عمّ الجزائر مع الحرب العالمية الأولى تقريبا أما الإدارة الفرنسية فقد سجلت مولده بتاريخ 1927².

عاش أبو القاسم حياة الصحراء بما فيها من شظف العيش، وطيبة السريرة، وحسن الخلق، ورحابة الصدر... فخالط الفلاحين وكان منهم. وكانت أسرته التي ينتمي إليها من الأب أحمد والأم لعبيدية هالي وإخوته وأخواته، معروفة عند أهل المنطقة باسم أولاد علي بن مسعودة المنحدرة من عرشين كبيرين بالمنطقة، وهما عرش أولاد عبد القادر من جهة الأب، وعرش أولاد بوعظية من جهة الأم. وأسرة سعد الله هذه، كانت من بين الأسر التي ابتدعت البدوع. والتي تعني غراسة الأرض بالنخيل، حيث غدوبة الماء وقربه من سطح الأرض وقد عاش الأب أحمد وأبناؤه الفقر الشديدي تحت السياسة الاستعمارية وثلاثيها الأسود (الجهل، والفقر، والمرض). وقد قال الشيخ أبو القاسم عن نفسه التي تكلم عنها بضمير الغائب مقتنا للأناية: "كان عند خروجه إلى الدنيا (يقصد أبا القاسم نفسه) وطاؤه الأرض وغطاؤه السماء". كما قال أيضا: "وكان أهله من أوائل الفلاحين الذين ابتدعوا (البدوع) فغمروها بغراسة النخيل لغدوبة مائها. ولكنهم يذكرون أيضا أنهم عند ميلاده (أبو القاسم) كانوا لا يفترون سوى الرمال ولا تظلمهم غير سقائف من جريد النخل". ومن شدة الفقر هذه، كان وإخوته يقتاتون على خمس تمرات للفرد الواحد يوميا. أما اللباس فكان الثوب يبلى ويقصر، ويتركه الأخ لأخيه والأخت لأختها. وهكذا عادة الجزائريين كلهم آنذاك، إلا بعض القلة من التجار وأصحاب رأس المال أو من دخل في خدمة الإدارة الفرنسية على حساب شعبه وقومه وبلده. وفي هذا قال الشيخ أبو القاسم سعد الله: "...أذكر مثلا أن الناس عندنا كانوا يتناولون أوراقا من النباتات الجافة عوض نبتة الشاي، وكأني بهم تحيلونها شايًا. وكنا نأكل في اليوم تمرات معدودات، لكل واحد منا خمس حبات حتى لا نموت جوعا والوالد (رحمه الله) هو من كان يقنن هذا الأمر وكنا لا نلبس جديدا، الكبير منا يترك لباسه للأصغر منه، وهكذا أي أن الألبسة الواحدة كان يتداولها الأولاد أذكر أيضا أن أول قميص ارتديته لم يكن جديدا، لأنه كان لباسا عسكريا بلون "كاكي" من مخلفات الحرب العالمية الثانية اشتراه لي والدي مكافأة على ختم القرآن الكريم".³

دراسته بمسقط رأسه ويتونس

كعادة الناس بالجزائر وبعموم البلاد العربية والإسلامية كانت أول وجهة مدرسية للقليد بلقاسم هي الجامع. فدخل الجامع القبلي بالبدوع في سن الخامسة من عمره أي حوالي 1936. وكان الأب أحمد وعائلته ومقربوه ينتمون إلى الحركة الإصلاحية، ومتأثرين بما حفظ بلقاسم القرآن الكريم وأقام له والده تكريمين، كان التكريم الأول معنوي وهو ذبح كبشين، وجمع الناس في حفل بهيج، تسامر فيه الناس على القرآن، والأخلاق، و"القصيد"، وهو ترديد القصائد والمدائح الدينية. أما التكريم الثاني، فكان ماديا وهو شراء اللباس المذكور سابقا، وهو أول قميص يلبسه بلقاسم

حفظ بلقاسم إذا القرآن الكريم حوالي سنة 1944، ولو بدون أحكام كما وصف ذلك مرة، وذلك على عهد شيخه المعلم: أبو القاسم بن البرية وكرّر حفظه ثلاث مرات، ترسيخا له، وتقليدا للسابقين وصلى بالناس التراويح سنتين متتاليتين 1944 - 1946، وكان التأخر في الحفظ بسبب عدم استقرار المعلمين بمنطقة البدوع إلى أن استقر بها المعلمان ابن البرية والشيخ الزبيري مع سنة 1941 أو 1942. ثم حاول الالتحاق بتونس خلال سنة 1946 لكن قلة المادة منعه من ذلك. فأجل الأمر إلى فرصة أخرى، وبدأ في استكمال حفظ المتون سنة أخرى،

حتى تمكن من الالتحاق بالزيتونة، تأثرا بالحركة الإصلاحية عموما، وبأسرته خصوصا حيث لكان ذلك هو طموح والداه خصوصا الأم.

انتقل التلميذ بلقاسم إلى تونس سنة 1947 والتحق بالزيتونة⁴ من أجل مواصلة دراسته، وهو ذو المستوى البسيط، على حد تعبيره، الذي لم يؤهله لأكثر من التسجيل في السنة الأولى رغم أن بعض زملائه استطاعوا، بفضل الله ثم بمسئولهم، التسجيل في السنة الثانية أو حتى الثالثة. ودرس الفقه والأصول والتوحيد والنحو والصرف والفيزياء والكيمياء والحساب (الرياضيات)... ولأول مرة كان تدرسه بأسلوب حدائثي حيث استعملت فيه السبورة بدل حلق الذكر. أما شيوخه هنا بالزيتونة فكان أبرزهم الشيخ علي الأصرم الذي خاطبه مرة قائلا: "إني فخور بك يا سعد"، وكذلك الشيوخ: مصطفى المؤدب، والصادق بسيس والمختار الوزير... وقد ختم أبو القاسم دراسته بالزيتونة بحصوله على شهادة التحصيل سنة 1954 في المركز الثاني على دفعته، مما يبين التطور الكبير الذي حصل فيه بفعل حيويته ودأبته واجتهاده ووعيه وقد تحصل التلميذ بلقاسم من الزيتونة على شهادة التحصيل سنة 1954. كان فكره ومستواه العلمي قد تطورا كثيرا، فأصبح أديبا ناقدا مشاركا في هموم الأمة، ومنتزعا للطلبة باصرار من بعض قادة الحركة الوطنية كما يمر معنا

من أسباب عزوف أبي القاسم سعد الله عن المناصب مذ كان طالبا

المعروف عن الأستاذ أبي القاسم سعد الله أنه كان يعمل جهده من أجل الابتعاد عن المناصب السياسية كما سيمر معنا، وله في ذلك أسباب كثيرة نترك القارئ يستشف هنا بعضها، مع بعض أسرار الشيخ سعد الله في البحث، والتزامه به وتفضيله إياه عن كل المناصب والعروض مذ كان طالبا وإلى زمن متأخر من حياته حيث قال أبو القاسم سعد الله: "أنا مدين لامرأتين في حياتي: أمي وزوجتي. وقفت والدي ورائي في حفظ القرآن الكريم في جامع البدوع بقمار، ثم الدراسة في جامع الزيتونة بتونس، أسوة بأخيها(حالي) لأكون مثله عالم محترما، معتقدة أن الله قد فتح عليها ((القدري)) (ليلة القدر)، وأنا طفل، فلم تطلب من الله شيئا غير العلم الشريف. وهي التي رسخت في هذه الفكرة، حتى عشت بها كل حياتي، معتقدا في قرارة نفسي أنني رجل ((قدري))، وأن الله قد اختارني لمهمة وهي خدمة العلم الشريف (الدراسة والبحث)، وأني لم أخلق لغير هذه المهمة. وقد طغت علي هذه الفكرة، حتى إذا حدثتني نفسي بتغيير مساري، راودني ((القدري))، وحضرت أمامي والدي وصورهما فأعود إلى مساري وقدري". ثم كانت شريكة حياتي (أم أحمد) فقد فهمت طبيعتي وطموحي، وحدود حركاتي، فساعدتني بما أعرف وما تملك، أولا بتوفير شروط العمل، رغم صعوبات المحيط الذي عشنا فيه. وثانيا بإعانتني بشتى الوسائل وإبداء الرأي أحيانا فيما أكتب، فهي صاحبة رأي حصيف، وثقافة واسعة. وكان تفرغي لأبحاثي وكثرة أسفاري يجرمانها دائما من بعض حقوقها، ومع ذلك كانت تقبل ذلك بكل رضى وطيب خاطر، وتشجعتني على مواجهة الصعاب في سبيل هدي النبيل⁵.

وإضافة إلى هاتين المرأتين الصالحتين كان لأبيه الفضل الكبير ولخاله حفناوي هالي، وكذلك للشيخ محمد الطاهر التليلي زوج حالته أيضا. ولاشك أن الملاحظة البارزة هنا، هي أن والديه قد نذراه للعلم (كم قال هو شخصيا)، ولذا لم يجبرانه على قطع مواصلة دراسته، كما فعلا مع إخوته، وكما كانت عادة القوم آنذاك.

والمعروف أن الله سبحانه وتعالى يصطفي لكل أمر أحسن الناس فيه . مصداقا لقوله تعالى: " الله أعلمُ حيث يجعلُ رسالاته" (الأنعام124). وكذلك قوله تعالى: "الله يصطفي من الملائكة رسالاً ومن الناس" (الحج75).⁶

بداية النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله

رغم أن سعد الله كان يرفض المناصب السياسية إلا أنه من أجل خدمة الثورة سواء بالتوعية قبل اندلاعها أو بنصرتها بعد ذلك فقد كان كثير النشاط وتعود بداية نشاطاته الثوري في حقيقة الأمر إلى يوم انكبّ -بتونس- على المطالعة والاجتهاد حتى أصبح له قلم سيّال، ولسان حاد في الجهر بكلمة الحق . وصار معروفا بمقالاته الموقعة باسمه تارة، وباسم الناقد الصغير مرات أخرى ، وكان يرفق اسمه أحيانا بعبارة (عضو رابطة القلم الجديد). ومن أهمها، نقده لأحمد رضا حوحو في "مع حمار الحكيم" تحت عنوان (في ضلال الأدب). الذي جعل حوحو يرد عليه تحت عنوان (في ضلال الأدب). وقد ظل أبو القاسم سعد الله معتزاً بهذا الرد طوال حياته حيث كان دائم القول: "أحس بسعادة كبيرة حين أتذكر رد الشهيد رضا حوحو على انتقاداتي الأبية له وأنا لا أزال طالبا شاديا (مبتدئا) في الأدب والنقد الأدبي . فكيف لمثله أن يرد عن مثلي . كما كان يخرج جريدة البصائر أحيانا، حين ينشر فيها أشعاره الثورية قبل اندلاع الثورة. مما يجعل هيئة تحرير الجريدة تضطر إلى حذف عبارات بأكملها، أو تغيير لفظا بلفظ تحفيظ لوظيفة الألفاظ على الإدارة الفرنسية،⁷ مما يلحق الضرر بالجريدة، وربما به شخصيا . كما كان يكتب أيضا في الجرائد التونسية ومنها الزهراء والحاضرة والرائد والأسبوع⁸ وشارك مع الحركة الطلابية التونسية في كثير من المظاهرات التي كان يدعو إليها الحزب الحر الدستوري بلطيد الذي كان يقوده الحبيب بورقيبة منذ تأسيسه سنة 1934 خلال مؤتمر قصر الهلال . كما أسس رابطة القلم الجديد، وهي رابطة أدبية تقليدا للرابطة القلمية المعروفة كما كان يقرض الشعر، ويكتب القصة أيضا

وفي سنة 1952 عينَ المرحوم الشهيد العربي التبسي أبا القلم سعد الله رئيسا للبعثة الزيتونية في تونس⁹ رغم أنه لم يكن من طلبة معهد عبد الحميد بن باديس¹⁰ . ورغم رفضه إلا أن العربي التبسي أصر عليه من أجل قبول المهمة فقبلها مرغما.¹¹ ورغم أنه ترأسها إلى غاية ايجاد بديل له إلا ان استمر على رأسها إلى غاية تخرجه سنة 1954،¹² وذلك ما يدل على رضى قادة الجمعية على نشاطه . وقام بما أحسن قيام كما يقول معاصروه هناك. ومن نشاطاته بالبعثة أنه كان يستقبل ويودع الطلبة الجزائريين القادمين إلى تونس أم الخارجين في مهام علمية من طرف معهد عبد الحميد بن باديس إلى تونس أو إلى المشرق عموما مورا بتونس بوابة الجزائر نحو المشرق العربي ومن بين البعثات التي ودعها نجد البعثة التي اتجهت سنة 1953 إلى بغداد، وهي البعثة الثانية التي ترسلها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من طلبة معهد عبد الحميد بن باديس إلى المشرق العربي.¹³ " وكان من بين أعضائها الذي لا يزالون على قيد الحياة، شرحبيل والجموعي المشري، ومن توفي عبد العزيز خليفة وأبو العيد دودو . استقبلهم أبو القاسم سعد الله وودعهم وألقى عليهم خطبة بمطار العوينة بتونس كلها حث على الجد والاجتهاد¹⁴ وكانت قصيدة شعرية بعنوان(نغم الوداع) ومما جاء فيها:

نغمة الشعر من أهازيج عودي *** مع نسيم الصبا ونفخ الخلود

ضحك الفجـ فوقها فتدنت *** عبق الوحي من شفاه الورود

فإذا رمت أن تثوب شعاعاً *** فالتمسها على ضفاف الوجود

إلى أن يقول

نخبة العلم ذي مباحج عيـدي *** ونشيد الرضي وفجر السعـود
قد تبوأـت عرش مجد تليـد *** وتفـيأت ظل عهد جـدي—د
وكشفت الحجاب عـنّا فحزت *** قصب السبق في غمار الجهود
ورأيت (الفرات) أعذب ماء *** فطلبت الغذاء قبل الـورود
يا مجيبا بأرض (بغداد) إنا *** قد شربنا الأسي ولفح الوقـود
فاسقنا منهل العلوم شـلبا *** وبقنا عند عرش مجد تليـد
إننا نعلم الحياة ونبنـي *** شامخ المجد عن أساس وطـيد
فنجـد الباني المجد بأبيـد *** خالـدات على الزمان شـهود.....
وآخر بيت هو قوله:

وإذا وفق الإله رجـالاً *** أقبل الكون بالدعـا والسجود. 15

ومن ثورية أبي القاسم سعد الله وهو بتونس وجدنا قصيدة معبرة عرّشوقه للثورة والخروج من دائرة أغلال الخوف، داعياً الشرق إلى التحرر من سيطرة الغرب مستبشراً بنصر وفتح قريب وذلك ما جاء في قصيدته (الشرق) التي كتبها سنة 1953 ومما جاء فيها:

قيد الظفر رايتي وجنـودي *** واستساغ الحسام هام الحسـود
أضرم العزم كهرباء ضلوعي *** يد أن النضار سر الكبـود
طعنات الزمان في كل خصم *** وفخار الزمان شم فنـودي
أينما كنت تنتظر بند نصري *** أنظر الأفق فالنجود بنـودي
وإذا شئت ان ترى نجم سعدي *** فانظر الأفق هل ترى من سعـود
لا يزال الجهاد وحي سمـو *** وجلال النهى وثمر جهـودي
هذه يقظتي وهضبة مجـدي *** فلقد طال في الزمان رقودي

يخمد الجمر تحت رمح رماد *** وتظل الحياة روح الخمود
إن تجدي اخوضها مستخفا *** لا أبالي بكل (غرب) حقود
جنب الخوف والتعجب مني *** فاحتقار الصراع طبع الأسود
جنب الخوف والتعجب مني *** هذه وثبة الرصاص السديـد
قد ترى البحر ساكنا وهو موت *** مستخفا بكل ما في الوجود
وترى الموج كالحياة اضطرابا *** وترى النفس كالشعاع الرشيد
إن ليل السحاب أدجن ليـل *** غير ان البروق سخط الرعود
إلى قوله:

قد شربتم من الدنان دهاقا *** فاشربوا-الآن- من مواضي الغمود
فلقد رجـت العروبة رجا *** كالبراكين بالصفي الصلـود
وإذا أيقظ الإله شعوبا *** جابه الكون صباحها بالسجـود. 16

ومن قصائد سعد الله الثورية التي نشرتها له جريدة البصائر نجد قصيدة (غيوم) التي أهداها إلى عشاق الدم وهو
إهداء واضح ولا يحتاج منا إلى أي تعليق عن ثوريته منجهة وتنبيهه باقتراب اندلاع الثورة التحريرية، ومما جاء فيها

سوف نغدو كالحياة

عبر هاتيك الحقول

نظاً العشب النديا

وسوانا في ذهول

*** ** **

إنما هي غيوم

مثل أشباح السكون

تلهم الأقدار فيها

كل عقل وجنون

كلها - حتما - ستغدو

كالهشيـم للفناء

في احتفال خضب

الحق يديه بالدماء

واشترى الخلد إليه

عن تساويح الوجود

** ** *

هامة الطغيان سكرى

برصاص الحريات

فتهاوت للجحـم

ثورة الخلق الغصوب

وانتصار الكائنات

مهبط الوحي الإلهي

وشعاعـات الخلود

** ** *

.....

أمة العرب جميـعا

قد تنادت بالكفاح

وانتشى الوعي لبيها

بتباشير الصباح

فعدت تبعث روحا

في الشباب لتحقق

أمل الأوطان فيهم

بدماء تتدفق.

آمن الأحرار منها

برسالات الوطن

فتنادوا كالهزيم:

ليس تفنى لمة

نضج العقل لديها

ولو احتج الردى

ولو انقض عليها

فلننشئ للخلود

ولتواجهنا نحن.....¹⁷

تواصل ثورية أبي القاسم سعد الله بلجرائر:

عاد أبو القاسم سعد الله من تونس إلى الجزائر يوم 19 نوفمبر 1954، استقر بمدينة الجزائر وامتحن التعليم بها أولاً بمدينة الحراش في مدرسة الثبات التي كان يديرها الشيخ الربيع بوشامة، قبل أن يلح عليه الشيخ فضلاء مدير مدرسة التهذيب بالعين الباردة بالأبيار وينتقل إليها في نهاية مارس 1955 حيث بقي بها إلى غاية نهاية الموسم في جوان من السنة نفسها. وجمع منها 100 ألف فرنك (كانت أجرته الشهرية بما 17 ألف فرنك). ثم فكر في الانتقال إلى المشرق لاستكمال دراسته، فاتجه إلى تونس لاستخراج جواز السفر وتمكن من ذلك بعد أن سجل في وكالة السياحة "الروضة للحج والسياحة"، وكان مديرها السيد نور الدين بن محمود وهو رئيس تحرير جريدة الأسبوع التي كان يكتب بها أبو القاسم قبل ذلك. وعاد أبو القاسم في شهر أوت - أيام هجومات الشمال القسنطيني الذي قاده زيغود يوسف - للمشاركة في مسابقة التوظيف (المناظرة) التي نظمتها جمعية العلماء لالتحاق المعلمين بمدارسها الحرة. وقد أشرف على المسابقة حينذاك الشيخ إبراهيم مزهودي. وقبل ظهور نتائجها، وصلته برقية من تونس تخبره بأن جواز سفره قد أصبح جاهزاً فالتحق بتونس ومنها إلى مصر¹⁸

وكانت قصيدة (مواكب النسور) هي أول قصيدة لسعد الله بعد اندلاع الثورة حيث نظمها بالجزائر بتاريخ 24 ديسمبر 1954 وجاءت متأججة لهبا، مستبشرا بما ومما جاء فيها:

.... وفم الإله مردد

لا ... لن تبـور

تلك المواكب والنذور

مدى العـصـور

والشعب يسبح في الدمـوع

والبؤس يحتطب الجـمـوع

والمبدأ الأسمى صريـع ...

بين المخالب والنجيـع

والصفحة السوداء خابية النـجـوم

والسوط يلتهب الجـسـوم

شوهاء طافحة الكلـوم

والتربة النضراء أضحت كالصريم

غبراء كالحة الأديـم

والريح عاصفة غضـوب

هو جاء تنفخ في الـدروب

فتحمل الأبواق أصداء الشـعوب

متأججـات باللهيب ...

مضمخـات بالطيـوب

والثائـرون ...

الثائرون على الطغاة يناضلـون

والخائنون يقهقهون ويسخـرون

ويرددون: "الخارجون المحرمون
سيحاكمون ويعدمون
والشعب تقهره الضرائب والسجون"

لكن مواكبنا تسير
كالريح تعبت بالخطير وبالخطير
كالفواكه الحمراء تقذف بالسعي
كالمدفع الغضبان دمدم في جنون
و (الذرة) الخرساء تزرأ في السكون
والكل يسخر بالقيود وبالسجون
ويردد اللحن الخصي ب:
"نحن القساء على الطغاة
نحن العتاة عليهم أمد الحياة
سنحطم الأصنام ... أصنام الجناة
ونمجد الأبطال ... أبطال الكفاح
ونعيش للأوطان آمالاً فسيح
ونرى بأعيننا الوجوه
نشوان مبتسم الخدود
والموكب الوطني خفاق البندود

يهتز بالأحرار ... أشبال الأسود"¹⁹

سعد الله بمصر: الجمع بين طلب العلم والنشاط الثوري

من أجل استكمال دراسته انتقل أبو القاسم سعد الله إلى مصر فدخل القاهرة يوم 24 سبتمبر 1955 مرورا بتونس، وليبيا التي بقي بها ثلاثة أيام²⁰ وأقام عند الشيخ البشير الإبراهيمي 15 يوما، تعرّف خلالها، ومن زيارته إلى الشيخ بعدها، على عدد كبير من الشخصيات العربية . منها مفتي مصر وشيخ الأزهر، والحاج أمين الحسيني زعيم فلسطين آنذاك. لكنه لم يكن يمارس عملا رسميا، إلا مراسلاته مع جريدة البصائر التي خصصت له عمودا سمته "رسالة القاهرة". ودام ذلك إلى حين نجاحه في مسابقة الدخول إلى كلية دار العلوم في 12 ديسمبر 1955 والتي أشرف عليها الأستاذ عمر الدسوقي . والتي قال عنها أبو القاسم : "وقد أنقذني أمام اللجنة حفظ القرآن الكريم، وقراءة أبيات من قصيدتي (الطين)".

واصل أبو القاسم سعد الله دراسته بنجاح وبملاحظات (جيد) في أغلب امتحاناته إن لم نقل كلها، حتى حصل على شهادة الليسانس في الأدب العربي والعلوم الإسلامية في جويلية 1959 ثم سجل في قسم الدراسات العليا (الماجستير) تخصص أدب عربي. وبعد أن أكمل السنة بنجاح بدأ في اعداد أطروحته حول شعر الشيخ محمد العيد آل خليفة. وكان ديوانه مخطوطا عند الشيخ الإبراهيمي كما سجل ثانياة بقسم الماجستير أيضا تخصص الدراسات الأدبية والنقدية. وقد دخل امتحاناتها في السنة الموالية، ولم يكملها بسبب التوجه إلى الدراسة بالولايات المتحدة الأمريكية.

ورغم أن أطروحة سعد الله للمجستير قد أصبحت جاهزة للمناقشة، إلا أنه لم يناقشها هي الأخرى، وتركها مخطوطة عند الشيخ البشير الإبراهيمي وطلب منه كتابة تصدير لها وطبعها، وكان له ذلك فطبعها الإبراهيمي بمصر في كتاب منفصل بنفس العنوان وهو "محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري".

هذا، وقد كان أبو القاسم سعد الله خلال إقامته بمصر يسكن بالمهادي وهي ضاحية تبعد عن القاهرة بحوالي 20 كلم، وكان يقطن بعمارة "يملكها الخواجة نقولا وهورجل من أصل يوناني أو أرمني، وتقع العمارة في شارع رقم عشرة، ولم أكن وحدي فيها بل سكنها أيضا الزملاء بلقاسم الجبالي والتوازي الشرفي والتركي رابع ومحمد بلعيد، وأخوان ليبيا هما عبد السلام حمودة وقريبه عمر الزليطني، وأختان شقيقتان من السودان كنا نساكن بالإيجار عند الخواجة الذي كان أيضا يسكن نفس العمارة مع عائلته ولكن هذا الوضع لم يكن مستقرا دائما فقد كان الزملاء يغيرون سكنهم من وقت لآخر. وأخيرا سكنت في غرفة مستقلة لم يكن يزعجنني فيها سوى صوت القطار الذي كان يمر تحت نافقي فيعرقل دراستي أو يوقظني من نومي في أغلب الأحيان²¹

مظاهر ثورية الطالب أبي القاسم سعد الله بمصر

إن التاريخ يذكر أن النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله قد بدأ بتونس سنة 1952، ثم تواصلت نشاطاته الثورية ومنها قصائده المهتمة بعاطفته الصادقة. ومن ذلك ما جاء في قصيدته (الثورة) التي نظمها في حريف سنة 1955:

كان حلما واختمــار

كان لحنا في السنيــن

كان شوقا في الصـــــــــدور
أن نرى الأرض تثـــــــــور إلى قوله:
كان شوقا، كان لحنا، كان حلما
ان نرى الأرض تثـــــــــور
أن نرى الأفيون نارا في العيون
غير أن الليلة الغراء شفت عن بطولة
والنداء الحر قد هز الرجولـــــــــة
والشتاء السادر المقرور قد عاد ضرام
والولاء الوافر المخدور قد عاد انتقام

أما قصبدة (ليلة الرصاص) فقد كانت هي الأخرى بعد مرور سنة عن الثورة ومما جاء فيها

وكان اختمار وكان ضباب
وكانت زلازل رغم المطر
وكانت قنابلنا قاصفات
وكان الرصاص يجيب القدر
وحضنا المدائن في لحظة
مطوقة بالردى والخطر
ونامت (فرنسا) على فوهة
معبأة بالدمار الأشـــــــــر

وباتت (جزائرننا) الفاضلة
دخاننا وزحما وعطرا ودم
وغيم الشتاء يجللـــــــــها

سوادا وجوف الرغام حمم
فحينما نجفف جدرانها
من العرق الراعف المستحم
وحينما نردد: أرواحنا
فداء الجزائر حتى العدم

وردت الأرض أنباءنا
صباحا، تشق الأثير الطلق
فتحمل للغرب جولتنا
وتحمل للشرق ضوء الفلق
فتدري العروبة أنا لها
هنا في الجزائر أرض العرق
حماة يموتون من أجلها
ويفدونها بالشباب اللورق

وثارت (فرنسا) وأذنانها
لتثار للشرف المستباح
ونادت مجالسها في جنون
نريد (العصاة) بحد السلاح
وصفق (كوتي) يريد الوزير
ودمدم (منديي): يا للوقاح
أليس الجزائر هي فرنسا

مذ احتلها جيشنا واستباح

وكانت كتائبنا الفاتحة

ترد الجواب على الأجياء

فيغشاهم الوقر من وقعهم

ويرديهم الموت عبر الدماء

"بلاد الجزائر مهد الغزاة

من العرب الخالص الأقوياء

وهذا الرصاص يحبيهم

ألا تسمعون هتاف الإلإء؟" 22

1 - تأسيس الرابطة الجزائرية لطلبة المشرق العربي ونشاطات سعد الله بها

بالنسبة لتأسيس الرابطة، يذكر الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله أن الطالب بشير كعسيس زاره وسلمه دعوة لحضور اجتماع رابطة الطلبة الجزائريين في المشرق العربي وهي "تنظيم أنشئ ليضم طلبة الجزائر المهاجرين في طلب العلم في مصر وسوريا والعراق والكويت، وقد حدث تنافس في أول الأمر بينها وبين (الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين) الذي تأسس في فرنسا سرىا سنة 1955 ثم تدخلت قيادة جبهة التحرير واندماج الطلبة كلهم في اتحاد واحد".²³

تأسست رابطة الطلبة الجزائريين في المشرق العربي يوم 14 أوت 1956 بنادي الطلبة الفلسطينيين وتبرع يومها ياسر عرفات للرابطة بخمسة جنيهات وكانت تعني الكثير آنذاك وتم انتخاب لجنة تحضيرية تتكون من سبعة أعضاء مهمتها اعداد مهمات الرابطة التي ستنتخب في المستقبل²⁴

وعن الطلبة الجزائريين بمصر قال أبو القاسم سعد الله "كان الطلبة يشكلون شريحة هامة في الجالية الجزائرية في القاهرة، وكانوا على وعي سياسي كبير، أولا لأن معظمهم عانوا من ظلم الاستعمار الفرنسي قبل خروجهم من الجزائر... وثانيا لكثرة عددهم ونفوذهم في دوائر الطلبة العرب مما قادهم إلى التفكير في تكوين منظمة تجمعهم فكانت (رابطة الطلبة الجزائريين في المشرق العربي).

كما سبق وأن أشرنا فإن أبا القاسم سعد الله كانت له نشاطات كثيرة شارك فيها كطالب باسم الجزائرئومن تلك النشاطات زيارته في أول رمضان الموافق ليوم 12 أبريل 1956 رفقة عثمان سعدي وعبد القادر نور وأربعة

طلبة جزائريين آخرين من أعضاء الرابطة إلى بيت الأديب طه حسين من أجل "لفت نظره إلى القضية الجزائرية وأدب الجزائر العربي بالذات ولكنه فاجأنا بقوله انه لم يتصل بأي إنتاج جزائري غير رواية مولود معمري(الربوة المنسية) التي كتب عنها".²⁵

وبعد أن تم استئناف الدراسة بالجامعات المصرية بعد توقفها إثر العدوان الثلاثي على مصر نظم نادي طلبة كلية العلوم مهرجانا خطابيا وشارك فيه جمع من الطلبة، وإذا بمنشط المهرجان "طلع علينا وقال: الآن سأقدم لكم رجلا من أبطال جيش التحرير الوطني الجزائري والثورة الجزائرية العظيمة التي لقت الاستعمار دروسا في التضحية والفداء والأخلاق... واسترسل في الحديث، وكنت أتشوّف وأتطلّع فإذا به بلقاسم سعد الله، ألقى خطابا حماسيا قاطعته التصفيقات عدة مرات، وقررت ألا أترك المكان حتى أصفحه، والك لي ذلك".²⁶

ومن أجل التعريف بالجزائر وثورتها كان أبو القاسم سعد الله يكتب لمختلف المجلات العربية فكان يكتب لمجلة العالم العربي التي كان يديرها السيد محمود أمين العالم والذي خصص له ركنا خاصا بالمجلة تحت اسم المغرب العربي في التاريخ). كما كان يكتب في مجلة الآداب البيروتية ومجلة الرسالة ببغداد

وإضافة إلى هذا، فإننا نجد من النشاطات الثورية التي قام بها أبو القاسم سعد الله بمصر ما جاء على لسانه في الكلمة التالية: "وخلال إقامتي في مصر شاركت باسم الجزائر، بالإضافة إلى الدراسة، في بعض الأنشطة الطلابية، كأسبوع شباب الجامعات بالإسكندرية، وأسبوع جمع التبرعات للثورة الجزائرية، والمقاومة الشعبية أثناء العدوان الثلاثي، والتطوع في جيش التحري الجزائري، ونشاط الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، وتنظيم مكتبة الحكومة المؤقتة، ونشر المقالات والقصائد...".²⁷ ليس هذا فحسب، وإنما ترك سعد الله النقاط المتتالية يعني هناك أعمالا أخرى قام بها ولم يسجلها هنا، وهن تلك الأعمال نذكر ما جاء على لسانه أيضا: "... وبعد وصولي إلى القاهرة راسلت البصائر التي أصبح الشيخ المدني رئيسا لتحريرها مكان إبراهيمي، وقد شملت مراسلتي فضالشيخ إبراهيمي في القاهرة، وما يقال عن الجزائر في مصر والشرق، ونشرت البصائر بريدي تحت عنوان (رسالة القاهرة)."²⁸

وقد كان سعد الله شديد الاطلاع على الوضع من خلال علاقته بالقادة السياسيين لجبهة التحرير الوطني الذين كان يلتقيهم مرارا ويربطه ببعضهم علاقات خاصة جدا وصلت حد المرافقة في كثير من النشاطات والزيارات إلى السينما والنوادي، على غرار إبراهيمي والمدني.²⁹ وكذلك عبد الحميد مهري، وفرحات عباس وعبد الرحمن كيوان... ومما قاله في هذا المجال: " وكثيرا ما كنت ألتقي بأعضاء الوفد الخارجي لجبهة التحرير... وقد حضرت إعلان الحكومة المؤقتة التي تشكلت برئاسة فرحات عباس في فندق الكونتنتال بالقاهرة والتقيت بكل أعضائها، وزارنا في النادي وفد جبهة التحرير وأخذنا معه الصور الجماعية".³⁰

أما عن إبراهيمي فقال أبو القاسم سعد الله "... لم أكن أعرف الشيخ محمد البشير لإبراهيمي قبل القاهرة إلا عن طريق البصائر والسماع... وحين عازمت السفر إلى المشرق للدراسة حملت إلى الشيخ إبراهيمي رسائل من الشيخين العربي التبسي وأحمد توفيق المدني ولا أدري ما الذي جرّأني على التزول عند الشيخ إبراهيمي في مكتبه

بمركز جمعية العلماء بالقاهرة ليلا، حيث أقيمت عنده خمسة عشر يوما.. وكنت من جهتي أحضر نشاطه الإعلامي والسياسي وأتجول معه في شوارع القاهرة وأشاهد معه الأفلام".³¹

ومما زاد سعد الله دعما في فهم أحداث الثورة الجزائرية أكثر-إضافة إلى علاقته الخاصة مع هؤلاء الفاعلين- هو الاطلاع اليومي على الصحافة المحلية بمصر وما تنشره من أحداث الثورة الجزائرية وخاصة وأن مصر كانت مدعما للثورة وناصرة لها، وكذلك ما تنشره تلك اليوميات المصرية من مقالات دولية تعالج الوضع الثوري بالجزائر سواء كأحداث تفصيلية من طرف صحفيين أجنب، أو كمقالات تعالج الوضع الجزائري من طرف كتاب عالميين ومتابعته كذلك لصحيفة المقاومة والمجاهد الصادرتين عن جبهة التحرير الوطني واللتين كانتا تصلاه هو الآخر وكثيرا ما كان يوزع أهدادا منهما على زملائه الطلبة. هذا إضافة إلى الصحف والمجلات الأخرى التي كان يطالعها سعد الله مثل صحيفة روز اليوسف، ومجلة الآداب التي كان يرسلها أيضا والتي نشرت له أعمالا تعرف بالجزائر وبأدبها وتاريخها وحضارتها وتاريخ الاستعمار فيها مثل مقالة المروحة التي نشرتها في العدد الخامس من السنة الرابعة 1956، وغيرها كثير. هذا إضافة إلى بعض صحف العراق وتونس كما مر بنا، وكذلك صحيفة العالم العربي. واتصاله بصحافة الجمعية البصائر والشهاب كما كان يسجل فقرات للصحافة عن الجزائر ونضالها مثلما فعل يوم 28 جويلية 1956 حين كتب كلمة لوفود الطلبة العرب المشاركة في أسبوع شباب الجامعات بالإسكندرية²² جويلية - 01 أوت 1956)، ومنحها للطلبة ليلي الشيبال عن كفاح المرأة الجزائرية، كما نشرت له جريدة الأسبوع قصيدة (العمالقة). وفي هذا قال سعد الله: "هناك ألقى كلمة عن الجزائر وقصيدتين".³²

وبمناسبة مؤتمر الطلبة العرب، عمل سعد الله على كتابة بيان باسم الطلبة استشار فيحمد توفيق المدني ومور مروش وعبد الرحمن مهري وعثمان سعدي والتيجاني هدام، ثم أنجزه تحت عنوان (ما يجب أن تعرفه عن الجزائر) وطبعه في أكثر ألف نسخة وقام الطلبة بتوزيعه، كما رفعت راية الجزائر عالية بمبنى كلية التجارة مع رايات الدول العربية المشاركة. أما أبو القاسم سعد الله فقد تولى توزيعه بنفسه يوم 27 أكتوبر في أهم شوارع القاهرة مثل شارع فؤاد والمناطق المحاذية له، كما تولى توزيعه بنفسه أيضا على أساتذته بالكلية في اليوم الموالي 28 أكتوبر 1956. كما شارك في مؤتمر (قضايا الوطن العربي) المنعقد في الغرفة التجارية في بداية ديسمبر 1956. وتلكم سعد الله باسم الطلبة الجزائريين وهو من قرأ البيان الخفي والتوصيات التي خرج بها المؤتمر³³

وهكذا، فبالرابعة أصبح سعد الله كما قال عنه رفقاؤه: "الشخص الوحيد الذي كان يحمل هموم الجزائر وهو طالب، في كل الندوات واللقاءات الطلابية والمحاضرات، لابدأن تجد سعد الله مساهما وخطيبا".³⁴ كما أصبح فيما بعد ابتداء من 19 أكتوبر 1957 مسؤولا عن اللجنة الثقافية للرابطة. واتفقنا نحن الطلبة "محمد بلعيد والمرحوم عبود عريوش والأخ محمد طالب وهو لا يزال على قيد الحياة أنه عندما نجتمع في أول جلسة نرشحوه للرئاسة، وكلفوني بأن أستشيريه. وقبل الاجتماع طرحت عليه الموضوع فسكت، وظننت أنه دليل الرضا. وعند الاجتماع كان سعد الله أول المتكلمين فقال لنا إخواني أنا أرجوكم أن تعفوني من أية مسؤولية مباشرة، أنا الآن مسؤول عن اللجنة الثقافية أرجوكم ساعدوني عليها اما كل مسؤولية مباشرة افلبرئ منها وبعيد عنها وكذلك كانت الحال حيث أصبح مسؤولا عن الشؤون الثقافية".³⁵ كما كان سعد الله إضافة إلى مهامه هذه والكتابة لمختلف الصحف والمجلات وأيضا تسجيل فقرات لإذاعة صوت العرب من القاهرة، ويدعو المحاضرين من رجال السياسة والثقافة من

الجزائريين بمصر ومن أجل الجزائر ونضالها ربط علاقات حتى مع من كان يراهم متفتحين من مثل محمد أبو الفتوح أطال الله عمره وكذلك الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف . إضافة إلى الشيخ عبد الكريم الخطابي والطلبة لإلقاء محاضرات توعوية ومعرفة بالقضية الجزائرية وبتاريخ الجزائر وحضارته كما كان ينشر بالجملة الحائطية للطلبة. هذا إضافة إلى تأسيسه مجلة خاصة بالطلبة غير المجلة الحائطية وسهر عليها وحققت نجاحا هاما في التوعية الطلابية للثورة والنشاط الطلابي بصفة عامة³⁶

2 - نشاط أبي القاسم سعد الله مع جبهة التحرير الوطني

تجدر الإشارة إلى أن كل نشاطات الطلبة الجزائريين بمصر كانت تتم آليا باسم جبهة التحرير الوطني، باعتبار أن كل الطلبة، وهو منهم، هم أعضاء في رابطة الطلبة الجزائريين بالمشرق(فرع القاهرة).

كما اشتغل أبو القاسم سعد الله في مكتب جبهة التحرير الوطني كضارب على الآلة الرافنة، وقال في هذا: "...إذ بعد الانتهاء من الدراسة أي في 1959 اشتغلت في مصالح جبهة التحرير بالقاهرة، وكنت من الذين يرقنون باللغة العربية، خصوصا في مصالح وزارة الثقافة التي كانت حديثة العهد . كما اشتغلت في هذه الوزارة بالمكتبة التابعة للحكومة المؤقتة والتي كانت تضم بالخصوص الكتب المهداة إليها³⁷ وكان سعد الله قد تحصل على شهادة في هذا التخصص بتاريخ 15 أكتوبر 1956 وهو تاريخ سحبه الشهادة نهائيا³⁸ وكذلك مكلفا بمكتبة الحكومة المؤقتة، حيث جاء على لسان السيد محمد درغام ماييلي: "تعارفت مع أبي القاسم سعد الله بالقاهرة سنة 1958 وتوأمنا بالحكومة المؤقتة 1959 - 1960 تاريخ التحاقه بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث كان هو (سعد الله) مكلفا بالمكتبة أما أنا فكنت مكلفا بشؤون الطلبة إلى جانب المرحوم تلمساني بوزيان"³⁹ هذا وقد كلف أحمد توفيق المدني مرة أبا القاسم سعد الله أن يعدّ نشيدا للجزائر بعدما كان النشيد الجزائري هو نشيد مفدي زكرياء (فداء الجزائر روعي ومالي ألا في سبيل الحرية)، وفعلا نظم أبو القاسم سعد الله ثلاثة قصائد - أناشيد وسلمها للمدني الذي أعجب بها: "ثم سلمت الأستاذ المدني الأناشيد الثلاثة التي أعجب بها، وقال إنهم سيلحنونها ويرسلونها إلى الجزائر وإلى صوت العرب...ولا أدري ما مصير هذه الأناشيد ولا املك منها نسحا رغم أن هناك أناشيد في ديوان الزمن الأخضر"⁴⁰.

وعند سفره باتجاه الولايات المتحدة الأمريكية في نوفمبر 1960 من أجل استكمال دراسته هناك وزع أبو القاسم سعد الله مكتبته على بعض الطلبة بمصر وعلى مكتبتهم التي طالما سهر على تنظيمها منذ تعيينه على رأس لجنة الشؤون الثقافية للرابطة الوطنية للطلبة الجزائريين فرع القاهرة كما مر بنا. وفي هذا قال: "وأذكر أنني عشية سفري (يقصد إلى الو.م.أ. في نوفمبر 1960) وزعت ما عندي من كتب على بعض الطلقة ومكتبتهم في النادي وربما على مكتبة الحكومة المؤقتة التي كانت بمقرها بجاردن سيتي، والتي كنت أعمل على تنظيمها في نطاق وزارة الثقافة"⁴¹.

3 - تجند سعد الله للمقاومة الشعبية أثناء العدوان الثلاثي على مصر

وبفعل الرغبة الثورية التي كان عليها ونصرته لقضايا العرب والمسلمين وكرد لجميل مصر لدعمها للثورة وكذلك لاحتضان الطلبة الجزائريين تجند أبو القاسم سعد الله للتطوع رفقة مجموعة من الطلبة الجزائريين يوم 01 نوفمبر 1956 "بعد التعليمات الصادرة من جبهة التحرير الوطني عن طريق رابطة الطلبة الجزائريين بالقاهرة"⁴²، فطوع سعد الله وشارك في التدريب على السلاح والدفاع عن مصر إثر العدوان الثلاثي عليها في 30 أكتوبر 1956. وأعطى رقمه الهاتفي لمجموعة من الطلبة كانوا يسعون إلى تنظيم فرقة جزائرية في جيش التحرير المصري.⁴³ ثم واضب على حضور التدريبات العسكرية بنادي المعلمين بالقاهرة، وتدريب على الجري والرمي بالرصاص من البنادق السوفيتية الصنع حيث يذكر سعد الله انه يوم 13 نوفمبر 1956 رمى 05 رصاصات من السلاح الروسي المذكور. ومن بين الجزائريين الذين اختاروا التطوع بالجيش المصري نذكر إضافة إلى أبي القاسم سعد الله - مولود الخطيب، جلول الخطيب، محمد شبيلة... وآخرون"⁴⁴.

خاتمة:

عاش أبو القاسم حياة نضالية يعتز ويفتخر بها كطالب وكجزائري، ولذا وجدنا كل من عاصره إلا وذكره بخير ذكرا صادقا حقيقيا. فقد كان الطالب الجاد في دراسته والمتفوق فيهما وهناك من نصحه بأن يبقى في مصر لمنافسة طه حسين على الريادة الأدبية في مصر والوطن العربي وهو الطالب الساهر على مصالح الطلبة والمجاهد بين زملائه الطلبة، وقادته السياسيين، للتعريف بتاريخ الجزائر وحضارتها الشيء الذي جعله يعرف بها من خلال تراثها الأدبي تحت عنوان تاريخ الأدب الجزائري الحديث والذي سرعان ما جعله يتوسع فيه إلى تناول كل تراث الجزائر الثقافي الذي قاده في نهاية الأمر إلى كتابة موسوعته تاريخ الجزائر الثقيل التي كان هدفها الأساسي منها هو: التعريف بتراث وتاريخ الجزائر ودورها في العلم والحضارة.. وأما ليست بلد الحروب أو الصراعات مع الغزاة والمستعمرين؛ وإتم أراد أن يوضح للجزائريين أنفسهم وللعالم أجمع، أن الجزائريين صناع حضارة ولكن ربما لم يكتبوها وهو ما يعيبه على الجزائريين وكان ينصحنا كطلبة بقوله: اكتبوا وقيدوا ما تصنعون وما تفعلون وما يمر بكم من أحداث يومية محلية أو عالمية، فإنها ستصبح ذات فائدة لكم ولوطنكم يوما ما. هذا وأنا نشير هنا إلى أن الهدف من وراء هذا المقال كان من أجل تتبع النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله في تونس ومصر من أجل نجاح الثورة الجزائرية التي تعني له الاستقلال وتحقيق مقدساته الثلاث: الوحدة الجزائرية، الإسلام، والعروبة.⁴⁵ كما نرجو أن يكون هذا الجهد فاتحة للمزيد من الدراسات والبحث في هذا الموضوع.

هوامش البحث:

1 للموضوع مصادر ومراجع (هي مذكورة مفصلة في المجلة)